

على هامش الفلسفة

للأستاذ محمد يوسف موسى

—•••—

مسألة الأسباب والمسببات التي تثار حولها الخلاف الشديد بين الفزالي وبين الفارابي وابن سينا في تهافت الفلاسفة . ثم أثارها بعده ابن رشد في تهافت التهافت الذي كتبه دفاعاً عن الفلسفة والفلاسفة ضد ما وجهه الفزالي من هجمات نالت من الجميع نيلاً كبيراً ، ولا تزال الفلسفة متأثرة بها حتى هذا العصر الذي نعيش فيه

يرى الفزالي ، ممثل المتكلمين في عصره ، أنه كان من الممكن أن يكون العالم على غير ما نشاهد الآن ، وأن ما نظنه سبباً للإبصار أو الكلام أو الموت أو الحياة أو ما نعتقده أداة لشيء من هذا ونحوه ليس كذلك في نفسه ، بل لأن الله قدره هكذا أولاً . وفي ذلك يقول : « الاقتران بين ما يعتقد في المادة سبباً وما يعتقد مسبباً ليس ضرورياً عندنا ... فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر . مثل الزى والشرب ، والشبع والأكل ، والاحتراق ولقاء النار ، والنور وظلوع الشمس ، والموت وجز الرقبة ، والشفاء وشرب الدواء ... وإن اقترانهم لما سبق من تقدير الله سبحانه بخلقهما على التساوق لا لكونه ضرورياً في نفسه . بل في المقدور خلق الشبع دون الأكل ، وخلق الموت دون جز الرقبة ، وإدامة الحياة مع جز الرقبة وهم جرا إلى جميع المقترنات ، وأنكر الفلاسفة إمكانه وادعوا استحالة^(١) »

إذا فبعد الفزالي أنه يمكن أن يجعل الله العين أداة وسبباً للشم لا للإبصار ، والأذن للشم لا للسمع ، وأن يخلق اللميع دون سببه وهو الأكل ، والرى دون الشرب ، وهكذا إلى سائر الأمور التي نعتقد أنها أسباباً تلوها حتماً مسبباتها

أما ابن رشد — وقد جعل من نفسه مدافعاً عن الحكمة ، وهي كما يقول : « حاجبة الشريرة والأخت الرضيعة — فيرى أن لكل شيء سبباً لا يتخلف عنه ، ولكل عضو عملاً لا يمدوه ، وأن « العقل ليس هو شيئاً أكثر من إدراكه الموجودات بأسبابها وبه يفترق عن سائر القوى المدركة ، فن رفع الأسباب فقد رفع

قرأت كلمة الأستاذ الكبير عباس العقاد بعدد الرسالة رقم ٣٣٥ التي عنوانها « مع أبي العلاء في سجنه » وفيها يتمقب الدكتور طه حسين بك في بعض ما ذكره في بحثه عن شيخ المرة رهين الحبسين ، إذ لا يرضى ما فهم من قول أبي العلاء في بعض فصوله : « بقدر ربنا أن يجعل الإنسان ينظر بقدمه ، ويسمع الأصوات بيده ، وتكون بنانه مجارى دمه ، وينم الروائح بمنكبه ، وعشى إلى الغرض على هامته ... » لا يرضى أن فيلسوف المرة « قصد بهذا الفصل خاصة إلى رأى من أشد الآراء الفلسفية الأبيقورية خطراً ، وهو إنكار العلة النائية وإثبات أن العالم كما هو لم يخلق لغاية معينة من هذه الغايات التي نعرفها نحن ونزعم أن الأشياء خلقت لتحقيقها » . ويرى — أى الأستاذ العقاد — أن هذا الرأى من الدكتور فيه شيء من السواب ، ولكن « أصوب من هذا أن يقال إن رأى المعري شبيه برأى الماسرين الذين يقولون : إن الوظيفة تخلق للمضو ، وإن القوة تسبق الظاهرة » .

هذه الكلمة أثارت منى رغبة كامنة في متابعة الكتابة في الرسالة — تحت عنواني التي اخترتها العام الماضي ، وهو على هامش الفلسفة — لو إلى ذلك سبيل الآن ذلك أن البحث الذي أعنى بإعداده هذا العام أو بالتحضير له عن ابن رشد ومكانته في الفلسفة الإسلامية يملك على كل أسرى ويستأثر بكل وقتي أو لا يدع هذه الرغبة تخرج من القوة للفعل ، إلى حين أرجو أن يقصر أمدته إن شاء الله تعالى . إلا أن اتصال الموضوع الذي أثاره الأستاذان من غير قصد بالدراسات التي أحبس نفسي عليها هذه الأيام ، جعل من الواجب أن أكتب كلمة قصيرة أبين فيها أن التوفيق أخطأهما كليهما فلم يصيبا الحز . وإلى الفاروق البيان : تشير كلمة أبي العلاء — فيما أرى إن كان قالها جاداً — إلى

(١) تهافت الفلاسفة للفزالي ص ٢٧٧ — ٢٧٨ الطبعة العلمية للاب بوريج

بل بفاعل من خارج فعله شرط في فعلها بل في وجودها فضلاً
عن فعلها^(١)»

أعتقد أن القارئ يرى متى بعد ما سقناه من كلام النزالي،
وفيسوف قرطبة، أن الدكتور طه حسين بك لم يكن مصيباً
فيما أكده من أن شيخ المرة كان يرى بقولته التي أسلفنا
إلى شيء من الفلسفة الأبيقورية، وأن الأستاذ الكبير المقاد
لم يكن موقفاً كذلك في التعقيب عليه، وأن المرء لم يقصد
بكلامته — إن كان سلك فيها مسلك الجد — إلا الإشارة لفلسفة
المتكلمين الذين يدفعون التلازم بين الأسباب والسيببات على النحو
الذي ذكرناه عن ممثلهم وزعيمهم في عصره حجة الإسلام
النزالي. وبالله التوفيق. محمد يوسف موسى

(١) للرجم نفسه ص ٥٢٤

العقل. وصناعة المنطق تضع رضاء أن ههنا أسباباً ومسببات،
وأن المعرفة بتلك السببات لا تكون على التمام إلا بمعرفة أسبابها
فرفع هذه الأشياء هو مبطل للعلم ورفع له^(٢) ثم يعود إلى تأييد
نظريته هذه في موضع آخر فيقول: «ولو ارتفعت الضرورة عن
كميات الأشياء المصنوعة وكيفياتها وموادها كما تنوهم الأشعرية
مع الخالق لارتفعت الحكمة في الصانع والحلوقات... إلى أن
يقول: وهذا كله إبطال للعقل والحكمة^(٣)»

على أنه لا يجب أن يتبادر للذهن أن ابن رشد، الرجل الدين
كان يرى اكتماء الأسباب بنفسها في خلق مسبباتها. فن الحق
أن تقول إنه يقرر «أنها ليست مكففة بأنفسها في هذا الفعل

(١) تهاات التهاات لابن رشد ص ٥٢٢ الطبعة الثانية للأب بورج

(٣) للرجم نفسه ص ٩٣

الرسالة في ستمها الثامنة

تدخل الرسالة عامها الثامن في أول يناير وهي أقوى ما تكون اعتماداً على فضل الله
وعطف أنصارها في تذليل كل عقبة

وعلى الرغم من استحكام أزمة الورق وغلائه الفاحش في العالم كله ستستمر الرسالة على تخفيض اشتراكها ومنح هداياها
وإصدار عددها الممتاز -- فن الآن إلى آخر شهر يناير الآتي سيكون الاشتراك في الرسالة مميّزاً بما يأتي :

٦٠ ستون قرشاً عن سنة كاملة في مصر والسودان تدفع من الآن إلى آخر يناير ويكون المشترك الحق فيها يساوي خمسة
عشر قرشاً من الكتب القيمة التي سننشرها في عدد أول يناير من الرسالة
٥٠ خمسون قرشاً عن سنة كاملة في مصر والسودان للمعلمين والطلاب المعاهد والمدارس تدفع في أثناء السنة المذكورة
ويكون المشترك الحق كذلك فيها يساوي خمسة عشر قرشاً من كتب الهدايا. ويجوز لهم دفع الاشتراك خمسة أقساط متتامة.
والاشتراك في البلاد العربية كالاشتراك في مصر من حيث القيمة والمدة والهدايا، وإنما يدفع المشترك فيها فرق البريد
وهو أربعون قرشاً في العراق، وعشرون قرشاً في سائر البلاد العربية

الرواية

أما الرواية فسنندغمها مؤقناً في الرسالة حتى يسهل ورود الورق فتصدر منفردة بشكل أنعم ونظام أجل. وستعنى الرسالة
فيما تعنى به من الأمور الجديدة بالأنصوبة فيكون في كل عدد منها أقصوبة أو أقصومتان من أدوع ما يوضع أو ينقل.

الاشتراك في الرسالة الآتية يتضمن لك دائرة معارف ومكتبة

سورة المنظور

حلاقو القاهرة ... !

—*—*—

لا تفهم يا قارئ العزيز أنى أعقد لك فصلاً تاريخياً عن منظر من مناظر القاهرة العظيمة في زمن ابن طولون أو في زمن الحاكم بأمر الله أو في زمن قلاوون عليهم رحمة الله، فإني لا أكتب هنا إلا عما يقع عليه منظاري ... وإنما أنا محدثك عن منظر من مناظر هذه العاصمة الكبيرة في القرن العشرين بل وفي عام ١٩٣٩ الذى أوشك أن يتطوى على وجه التوحيد

ولا تتوهم أنى فيما أصف لك أذهب بك إلى تلال زينهم أو إلى أعلى الدراسة أو إلى جوار المهدى أو إلى ما وراء سيدى الرحلى؛ فإنك قد تفكر على ما أقول لجهلك فيما أظن مظاهر العيش في هاتيك البقاع ... على أنه قد لا يكون جهلك بها أكثر من جملى

وإن لك في أقرب شوارع المدينة غنية عن الذهاب إلى أطرافها فسر في شارع ماسبيرو على ضفة النيل أو في شارع شبراحيث المدرسة التوفيقية أو في شارع الملكة نازلى أو حول حديقة الأزبكية وانظر ماذا ترى

لا شك أنك رأيت هؤلاء الحلاقين الذين يترسون على الأرض أو على الأسوار وبأخذون في حلق رؤوس زبائنهم ولحاهم في صورة تدعو إلى الاستمزاز والأسف والضحك جميعاً

وقفت على مقربة من أحدهم ورأيت أنه وقد ثمر عن ساعديه وأمسك بالموسى ودعا إليه من زبائنه الجالسين حوله من جاء دوره .

ومثل الرجل بين يديه وله لحية ما أحسبه أجرى الموسى عليها منذ مثل هذا اليوم من العام الماضى؛ ووضع الحلاق كفه في إماء بجواره فاغترف غرفة من الماء بيده ورشها على تلك الأشواك الكثيفة في وجهه صاحبنا وأجرى عليها قطعة من الصابون، ثم شحذ الموسى على ذراعه بأن حكها بها عدة مرات في سرعة عجيبة ولا استيقن من مضبها راح يقطع هاتيك الأشواك، ثم يسمح ما تجمع منها على حافته - للاحه في ظهر يسراه أو يأخذها على سبابته

ويقذف بها في الجو لا يبالي أن تقع ولا من يصيب برشائها ... ونظرت إلى الحلاق وزبائنه أتبين ماذا كان يخالجهم شعور من المبالاة، فلم أصب في وجوههم إلا مثل ما يرى في الحيوانات من عدم المبالاة فيما تأتبه من أعمالها جميعاً على أعين الناس؛ وكأن هؤلاء الناس جلوس في دكان لا تقتحمهم فيه الأعين !

وهمت أن أدور بمنظاري عن هذا المنظر الذى لست أدرى لم وقفت إليه تلك اللحظة، وقد كنت أبدأ أمر به مسرعاً، وإنى لأضيق به أشد الضيق، وكان الظروف أرادت أن تنكيد لي أشد الكيد فلا تفلح عن العناد حتى في مثل هذا الموقف النافه؛ فهذا غريب مقبل ومعه سيدة وفي يده آلة تصوير، وإياه ليضحك ملء شذقيه كأنما يقع من الحلاق وزبائنه على بنية طلالاً تنمها

وأعد الفرنجى آتته للتصوير، ولشد ما غاظنى أن أرى الحلاق ومن حوله يضحكون ضحكة البلهاء كأنما يفرحهم أن يأخذ « الخواجة » صورهم، وسمعت ذلك « الخواجة » يقول لصاحبه بالإنجليزية ما ترجمته : « أنظرى فسنحصل على صورة ظريفة لحلاق القاهرة »

ودنوت منهما فحلت وتكلفت الابتسام أولاً، ثم عبست وبالفت في العيوس لأعبر عن احتجاجى، وتكلمت في لهجة استخذى لها ذلك الغريب، وحرار ماذا يقول؛ وأشارت إليه صاحبه فطوى آلة التصوير؛ وكأنما أملى عليه إحساسه بالغربة أمام احتجاجى الشديد أن يثبط فاعتذر، ولكنه أعقب اعتذاره بقوله : « جميل منك أن تفضب لسممة شعبك ولكن أجمل من ذلك أن تريحوا عن الأعين ما يشوه هذه السممة »

وجيل من الرجل قوله هذا لا شك عندي في ذلك؛ ولكن ما حيلتى وما أملك غير الفرطاس والقلم؟

لديس يهمنى من هذا المنظر وأشباهه ما عسى أن يقول عنا الأجانب من أجله لحسب، وإنما أراه على ذلك شيئاً تنادى به الميئون وتشمئز منه النفوس . ولئن لم تقع عليه وعلى أمثاله أعين غير أعيننا، ففيه مما يشمرنا بالضعة والمهجنة